

الهندسة الجينية من الممارسة التقنية للحدود الفقهية

Genetic engineering from the technical practice of jurisprudence

مسعد أسماء^{1*}، جفال عبد الإله²¹ جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر (الجزائر)، مخبر الدراسات الفلسفية و قضايا الإنسان و المجتمع في الجزائر

(جامعة تيارت) mesaad.asmaa@univ-mascara.dz

² جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، abdelillah.djeffal@univ-mascara.dz

تاريخ النشر: 2026/06/12

تاريخ القبول: 2026/06/02

تاريخ الاستلام: 2026/04/30

ملخص:

لا مرأى في أنّ الثورة البيولوجية عامّة والجينومية خاصّة تثير مسائل جديدة، متعلقة بالجوانب القانونية والأخلاقية حتّى الفقهية، كما تكسب القضايا القديمة راهنية جديدة في سياق الإهتمامات المعاصرة، ما يدفع بنا لتسليط الضوء على مسألة حق التصرف في جسد الإنسان من منظور فقهي مثلاً، لتغيير وجهات النظر حول المواضيع المسكوت عنها بحجة العلم والتطور التقني، وما يثيره التقدم العلمي البيولوجي من اهتمام، لكن وجب على هذا التطور أن يبقى حاملاً علماً إنسانياً في رحمه يهدف لخدمة الإنسانية، من خلال ترويض التقنية وجعلها مرهونة بضوابط إنسانية أخلاقية يمكن أن يعاد بناؤها استناداً إلى الفقه بوصفه احتمالاً تأويلياً ضمن جملة من المرجعيات. غير أنّ هذا الإقرار قد يتبدّى في المقابل أمام علم الجينوم الذي يعمل على وضع قراءة دقيقة للرموز البيولوجية في جسم الإنسان، والتي من شأنها أن تستبطن نزوعاً اختزالياً شبيهاً بما طرحته اليوجينيا، بما يفضي إلى تهميش المرجعيات الأخلاقية والفقهية، ومن ثمّ إلى تعميق شرعية واضحة بين الإنسان وامتداده الروحي و أسر حدوده الفقهية القادرة على إعادة صون البعد الإنساني من التمرکز البيولوجي الخالص.

كلمات مفتاحية: الثورة البيولوجية، الجينومية، العلم، الإنسانية، الضوابط الفقهية.

* المؤلف المرسل: مسعد أسماء

Abstract

There Is no doubt that the biological revolution in general and the genomic revolution in particular raises new issues, related to the legal, ethical and even jurisprudential aspects, and gives old issues modern concerns, which prompts us to shed light on the issue of the right to dispose of the human body from a jurisprudential perspective, to change views on Topics that are silent on the pretext of science and technical development, and the interest raised by biological scientific progress. But this development must remain carrying a human science within it that aims to serve humanity, by taming the technology and making it dependent on ethical human controls derived from jurisprudence pertaining to the biological life of man, so that we find genomics working on developing an accurate reading of the biological symbols in the human body, which It would be presented to him, so that the genome project would become a multidimensional phenomenon. We aspire for it to obtain a moral investment saturated with jurisprudential controls, that does not make the scientific horizon transgression of man and his sanctity, as eugenics brought about by creating a clear rift between man and capturing his jurisprudential limits.

Keywords: biological revolution ; Genomic ; science; humanity ;jurisprudential controls.

1. مقدمة:

تتسارع عجلة الثورات العلمية مع بدايات القرن الواحد والعشرين، خاصة التي تحمل في طياتها أهدافا بيولوجية، لكن هذه التطورات الهائلة مسّت كل مجالات الحياة الإنسانية عبر تاريخها الطويل، بفعل رغبة الإنسان الكامنة وسعيه الدائم نحو التجديد والتغيير؛ من الطبيعة المحيطة به وصولاً إلى ذاته، ليتمرد بتغييره من أسر الحدود البيولوجية الحاكمة

لوجوده الطبيعي؛ خاصة بظهور أفكار حول ما يتعلق بالجينات مع تشارلز داروين وكتابه أصل الأنواع. فأخذ هذا الحلم الإنساني مكانته في الواقع كعلم جلي يدرس الإنسان باعتباره كائناً حياً يحمل صفات وراثية وجينية، توالى حولها الاكتشافات القائمة على مبدأ تعديل جينوم الكائن الحي، بعزل أو نسخ عناصر جينية، نتج عنها قفزة كبيرة في تعامل هذه التقنية مع الكائن الحي عامة والإنسان منه خاصة، ما ساعد في تبلور مصطلح "المشروع الجيني"، غير أنّ كل ثورة، في بنيتها العميقة تنفتح على أثر مزدوج يتراوح بين البناء والهدم، هذا ما نلمسه خاصة بعد أن حدث جنوح بالشفرة البيولوجية عن مسارها السوي، نتيجة الاستخدام الغير حكيم للتقنيات البيولوجية الجديدة، حتى إن كان هذا الأمر لا يخفي دور هذه التطورات في إثراء المعرفة العلمية عن طريق التعرف على المكونات الوراثية وإنتاج مواد بيولوجية، يحتاجها جسم الإنسان وتعديلات جينية كان يحلم بها في فترات ماضية.

قد ترتّب عن ذلك انبثاق تساؤلات متشعبة، تقاطعت بين الحقل العلمي وامتدادات معرفية موازية، وامتدّت في عمقها لتلامس الإشكالات المتصلة بالمرجعية الفقهية تحوم حول حق الحياة وحرمة الجسد وتفعيلها في المطارحات البحثية المعاصرة، فالطبيعة البشرية ذات قيمة ووزن، تجعلها مواجهة في سياق التطبيقات التقنية لعلم الجينوم قضايا أخلاقية عديدة مستجدة، تضعنا في خضم التساؤل إن كان هذا العلم يضيف على الإنسان شعاع الأمل لفكّ أزمت نفاثه الفسيولوجية أم شعور الألم اتجاه ما آلت له طبيعته الإنسانية المكرّمة وإنتاجها لجنس بشري متجاوز لصورته الأصلية الأصيلة التي أنعمه الله بها؟ ألم يقل عزّوجلّ "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (التين، صفحة 4)؟.

إشكالية الدراسة:

على ضوء ما سبق طرحه، تتشكّل العلاقة بين العلوم البيولوجية والإنسانية ضمن نسق تفكيري تدبّري مؤسس على رؤية فقهية معيارية، تعيد ضبط التداخل بين المعرفة العلمية وأفقها القيمي الذي يفضي بنا تأخذنا إلى طرح الإشكالية التالية: إن كان التصور ضرورة

للفقيه من أجل إدراك المسألة: فهل تصور المشروع الجينومي كتقنية بديلة لخلق جنس بشري محسّن متجاوز لنقائصه الفيزيولوجية كفيل لترخيص الممارسة اليوجينية؟ وما رأي الحقل الفقهي في ذلك؟.

2. من تاريخية الهندسة الجينية لرهاناتها :

إنّ الميل إلى البقاء نزعة فطريّة في بنية الإنسان، و التثبيت بالوجود أحد أقدم أشكال الأمل الإنساني منذ بدايات تجربته الوجودية، وقد تحوّل هذا التطلّع مع تطور الكيمياء المتقدمة إلى مشروع لصناعة "ترياق الحياة"، كمشروع يتصل باعادة تشكيل شروط الحياة، وهو ما نجد له امتدادات رمزية في الحضارات القديمة كأسطورة "إكسير الحياة" بما تحمله من نزوع إلى تجاوز المرض والسعي نحو الشفاء. وقد ظل هذا السعي حاضرا في تاريخ العلم بوصفه تعبيرا عن إرادة إنسانية مقاومة للنقائص البيولوجية وهي الإرادة التي يمنحها اليوم علم الجينوم إمكانيات تقنية جديدة، تتيح للإنسان فرصا إضافية للعيش.

ما يجعل من البحث الجيني وسيطا للحياة بين الكائن الحي ووجوده المتغير في دينامية متواصلة، ليؤهل الجينوم على الإجابة عن أسئلتنا حول مصدرنا و مصيرنا، أي من نحن ؟ ومن أين حصلنا على ما نحن عليه ؟ فيأخذ بنا لحقائق تجعلنا نصنفه كأكبر مشروع في بداية القرن الواحد والعشرين، خاصة بمرحلته ما بعد الجينوم لكن قبل الولوج فيها علينا أولا أن نتطلع لتاريخية المرحلة الجينومية حتى يتسنى لنا فهمها .

تاريخية هذه المرحلة كانت في أروقة الجدل الفلسفي، بالتفكير في الطبيعة البشرية بغية إدراك الإنسان وباطنه، ورغم اختلاف الاتجاهات والرؤى الفلسفية لكن كلها كانت تساعد على إعادة التمعن في معاني الحياة والموت والجسد والكينونة وغيرها من الإنسانيات .

كما كان أفلاطون يبحث دائما عن "الإنسان القوي لحماية الدولة و الأجساد ذات الذكاء المميز لتسيير النظم السياسية حين وضع إنشاء جمهوريته الفاضلة إذ حاول أن يضع قوانين

تحدد النسل وتنظمه" (أفلاطون، 1986، صفحة 300)، ونجد كذلك نيتشه يتحدث عن "الرجل الأعلى" والدعوة لتحقيق أفضل نسل للبشرية وغيرهم من الفلاسفة.

ليتعدى البحث لمواضيع علمية بيولوجية وأبحاث بيوطبية بمضامين حول الطبيعة البشرية، يشهد لها القرن السابع عشر من خلال دراسة الكائن الحي، بتجاوز مسائل المادة الجامدة وذلك سعياً للتجريب على الكائنات الحية في إطار علمي مقنن، لكن سرعان ما ظهر ما يسمى بالجنشع العلمي، الذي تنبج عنه نوايا البحث في تغيير فيزيولوجية الإنسان وبقيت هذه النوايا محتشمة إلى أن جرّدها داروين من ذلك؛ من خلال نظريته في التطور بهدف التنوع، ليحدث بفعل فكرة الارتقاء زحزحة في فهم كيان الإنسان، خاصة بعد أن سواه مع الحيوان في الطرح أثار بها دراسات العلماء، فمهد بها لتأسيس علم الوراثة بدايتها كانت بمحاولة فهم عملية انتقال الصفات الوراثية والكشف عن عناصرها الأساسية، إلى أن ظهر مصطلح الجينات على الكائنات الغير مرئية التي تتكون منها التركيبة الوراثية، لتتخذها الأبحاث مخبراً لها فأصبحت التجارب على الجين تتقدم تدريجياً، بداية مع 1944 تتعامل مع DNA أي الجهاز الجيني، باعتباره المخطط الشامل للحياة العضوية، لكن بنية هذا الجهاز ظلت غامضة تحدث استفزاز فكر العلماء؛ خاصة مع عدم وجود إجابات واضحة حولها، إلى غاية إعلان الأمريكي جيمس واطسن وزميله البريطاني فرانسيس كريك اكتشاف جوهر الـ DNA واحتواءه على الصفات الوراثية، لتتسارع جهود العلماء لمحاولة التدقيق في هوية الجين، ما حققه دانيال كوهن وشيمكوف ليصبح الجين حاملاً للمعلومات الوراثية متحكماً في آليات الوراثة لدى الكائنات الحية.

مع التطورات العلمية الحاصلة أصبح للجين القدرة على تحديد الصفات الوراثية للإنسان حتى النفسية و الاجتماعية منها، بالمعنى البيولوجي أصبحت تمارس دور الهوية الحقيقية للإنسان، ما أخذ بالعلماء إلى محاولة البحث للكشف عن معرفة أدق للطبيعة البشرية اعتماداً على تجارب حيوية.

ليكون هدف هذا العلم هو الإنسان وطبيعته التي أعطاهها العلماء خاصية تجريبية، ما أدى إلى خلق ثورة ليس في الهندسة الوراثية فحسب، بل مسّت علم الأحياء عامة . ليفتح هذا الإنجاز العلمي آمالا كبيرة لمعرفة طبيعة الكائن الإنساني، خاصة مع تحقيقه لغايات تطبيقية نافعة كالمعالجة الجينية الجسدية وتحسين لنسل الإنسان وصفاته البشرية، فمشروع تحسين النسل هو "العلم الذي يعالج كل المؤثرات التي تحسن النوعية الأصلية للسلسلة ونميز بينه وبين اليوجينيا كدراسة للعوامل القادرة على تطوير النوع الإنساني تحسين النسل كمذهب اجتماعي و سياسي موجه لاحتضان هذه التحسينات بطريقة جذرية (rousse, 1985, p. 519) .

لكن بتحول المشروع الجينومي لموضوعة انتقاء الصفات البشرية المميزة وما يواكبه من نزوع إلى استبعاد لما يعدّ غير مرغوب فيه، يكشف عن تحول ذي أبعاد أخلاقية، إستيمولوجية حتّى فقهية، حيث أنّ بظهور ما يسمى اليوجينيا قد وضع البشرية أمام مأزق أخلاقي وخطر بيولوجي خاصة عند الكشف عن بلورة تعديل البشر وراثيا، والأمر من ذلك إلى انتهاك في مضامين العلوم الشرعية وما تشرّعه للإنسان من تصرفات وممارسات. الأمر الذي يأخذ بالتساؤل حول أهداف هذا المشروع المابعدية ومكانة كرامة الإنسان منه وللقلق على مصير الإنسان من هذه التقنية ؟ وبذلك يصبح الهاجس من التطورات أن يفقد الإنسان إنسانيته وطبيعته البشرية، وتستخدم هذه التقنية الحيوية في غير صالح الإنسان، أي تمرد المشروع الجيني، لينتقل السؤال من دائرته العلمية إلى أخرى وجودية فقهية قيمة.

1.2 فروع الهندسة الجينية وتجلياتها:

يتجلى هذا الطرح في نماذج تطبيقية للهندسة الجينية الموجهة للإنسان:

- الإستنساخ أو التنسيل Cloning: تعني نقل نواة خلية جسدية إلى بويضة لخلق جنين متماثل جينيا مع نواة المتبرع به ، لكنها تاريخيا جاءت بعد استنساخ النعجة دولي التي قد ماتت بعد مدة قصيرة، إلا أنها منحت فكرة نقل الممارسة إلى الإنسان بتخليقه حتى تكون له نسخ

مطابقة له، بحثا عن تجسيد فكرة الخلود، غير أنّ ما يثير القلق يتمثل في إشكالات التّماهي، حتى إلى الجانب الحسي في المخيال العلمي، ما يضعنا أمام معضلة أخلاقية عمية يتمّ الدفع بالنوع الإنساني فيها بما يحمله من تنوّع واختلاف نحو تصوّر اختزالي لوجود أحادي الصورة، وهذا ما ينافي مقومات الكرامة الإنسانية.

التحكم الجيني Gene control: يقوم على فكرة إنسان المستقبل فهو يسعى للتحكم ومراقبة الإنسان جينيا، بغرض التحكم في طبيعة مستقبله، ما يحقق الإنسان الصانع homo faber الذي يأخذ بتصنيع ذاته بيده لواقع يخرج عن طبيعته، وإن كان هو المشروع الذي يطمح له، لكنه يحوله نتيجة القدرة الخارقة التي تمنحها له التقنية- كما حللها هانس يوناس- من حالة الإنسان الصانع إلى إله بمفهوم السلطة والقوة the creator .

تحسين النسل eugenics: يقوم مفهومها على فكرة التدخل في الإرث الجيني للجنس البشري بهدف بناء نموذج مثالي متجاوز للنقائص الفسيولوجية، الأمر الذي يجعل السؤال الأخلاقي في مجابهة المعنى الصحيح لها، إن كان يرمي في البحث عن الجينات المسببة للأمراض أو تسعى إلى تحويل الخصائص الجينية، بهدف تغيير الجسد والبنية الإنسانية، لنستخلص من الممارسات الميدان واقعا لا يعرف الحدود في مفاهيم العلاج والتحسين والتغيير، حتى أصبح الحديث عن أسواق للجينات لطلب المشتريات جينية مرغوبة، لكن هذا التحسين هو تحويل لأكثر من أجسادنا، فهو تهديد لذواتنا ولتصورنا وبناءنا الجسدي، ما يطرح مشاكل بيواتيقية حول قدسية الحياة والتي تتطلب حولا قدسية ثابتة، كما عبر طه عبد الرحمان والتي أفضلها يتحقق بالإلتحام الديني والائتمان للأحكام الإلهية.

3. الإنسان اليوجيني بين أمل التغيير والم التغيير:

إنّ الجهود العلمية الأولى كانت تركز على فكرة اعتبار سلسلة الجينوم البشري مشروعا لتحسين النسل، من خلال البحث جينيا في كل ما يقود إلى خلق نوع بشري منتقى، والتي بداياتها كانت مع الفيلسوف أفلاطون ومدينته الفاضلة، ثم توالى الرؤى كمثال ما قدّمه

فرانسييس غالتون "برنامج للتكاثر البشري أسماه علم تحسين النسل، الهدف منه لا يقتصر على إيقاف الانحلال أو التدهور المفترض للمخزون البشري، بل يتعداه إلى تحسين الصفات الجسمية والفكرية للأجيال المقبلة" (الحفار، 1984، صفحة 29)، جعلها في صورة جديدة تحت مصطلح اليوجينيا، تنادي إلى تصفية جينية تسعى إلى خلق مجتمعات مختارة نقية الصفات، برفع الجينات الإيجابية وخفض أو نبذ الجينات السيئة، هو الأمر الذي تم رفضه من نواحي عدة فهدف علم الجينوم هو معرفة الجينات التي تسبب الأمراض الوراثية وتؤثر في نمو الجسم أو عجزه، والأخذ بإصلاحها في إطار العلاج الجيني اعتماداً على موروثات سليمة واستئصال غيرها، لكن التطورات العلمية أخذت تتجاوز فكرة العلاج الجيني حيث لم يعد الشفاء من الأمراض هو ما يثير الاهتمام، بل أيضاً التحكم في شكله وعواطفه ودرجة ذكائه وغيرها من المميزات، ليصبح هذا التحدي العلمي يطبق من مرحلة الجنين المبكرة، عن طريق إضافة الموروثات الجيدة المرجوة في بويضة المرأة مثلاً، هو الأمر المشابه لبنود المعالجة الجينية لكنه يتجاوزها بكونه لا يتوقف عند الجنين المعدل، بل تنتقل الصفات إلى أجياله اللاحقة، هو الأمر الذي ينشر نوع من الإيجابية إن تعلق بالتخلص من التشوهات بتعديل للخلايا الجسدية المصابة فسيستخلص المريض ونسله من هذا العيب، من خلال استخدام معرفتنا للموروثات لإنجاب أطفال نتوقع أن لديهم مرضاً وراثياً أو عيباً وراثياً معيناً، وهذا يعني أنه يمكن للوالدين التحكم جزئياً في طفل المستقبل فلطفل المستقبل الحق في ألا يكون معوقاً جسدياً أو عقلياً" (صبيحي، 1993، صفحة 148)، لكن الأمر فاق هذا الإطار فتغيير الطبيعة البشرية يفضي إلى جملة من التحولات العميقة التي تمتد آثارها إلى ما يعرف بأفق ما بعد الإنسانية خاصة مع ظهور أطماع علمية وإمكانات جديدة للتدخل في الجينات الموروثة ما يفتح المجال لمشاريع تروم تحول خلق نسخ بشرية جديدة معدلة جينياً، تهدف لولادة نوع مختلف متميز من البشر وعن البشر، كأنه متجاوز للطبيعة البشرية، وهذا لم يعد مستحيلاً، فالیوجینیا تسعى لتنشئة أجيال جديدة من البشر متفوقة، على الرغم من

عدم تحقق هذه المسألة إلى الآن، لكن هي عملية قطعت شوطا كبيرا من البحث والإنجاز، من خلال تكنولوجيا النسل التي تعمل على تغيير صفات الكائن البشري سواء في عوامله الفسيولوجية والبنوية والوراثية أو استبداله بإنسان مغاير تماما، أي الإنسان الآلي المتجاوز والذي يتشكل من استبدال بعض الأعضاء في الإنسان بأخرى آلية، بأهداف اقتصادية وسياسية وعلمية قاسية على طبيعته، مما يؤول إلى نهاية الإنسان كإنسان .

لتفضي تطورات الجينوم البشري وتطوراتها البيوطبية إلى انبلاج العديدة من المساءلات والإشكاليات الأخلاقية والعلمية حتى الفقهية، خاصة مع انبثاق ما يسمى بالتلقيح الاصطناعي وزرع الأعضاء البشرية، كذلك مسألة تغيير الجنس والإجهاض والموت الرحيم(الأوتانازيا)، كما ظهرت تقنيات جديدة على الوسط العلمي وحتى على الطبيعة البشرية، كأطفال الأنابيب والأمهات الحاضنات وكراء الأجنة، كلها مسائل تسلط الأهمية على المسئلة الأخلاقية لتبقى في مجال يضمن سلامة الإنسانية .

نادى الوضع المتأزم للواقع العلمي اليوم بضرورة العودة الأخلاقية، والفقهية بالأخص لتساير هذا التحول لأن "ما يضعه العلم تقنيا بتصرفنا يجب أن يكون خاضعا للرقابة الأخلاقية لتجعلنا بالمقابل ولأسباب معيارية غير قادرين على التصرف بها على هوانا" (هابرمانس، 2006، الصفحات 33-34).

أي الحاجة أضحت ضرورية إلى وجود دليل أخلاقي مستنبط من الفقه وتفكير ايتيقي بمعايير سلطة الدين التشريعية"لأن التحديات التي تواجه المجتمعات ما بعد الحداثة لا حصر لها فبات واضحا بأن الخطر الذي يدهم الإنسانية بفعل التطور العلمي قد يؤدي إلى القضاء على العنصر البشري" (هابرمانس، جدلية العلمنة "العقل و الدين"، 2013، الصفحات 23-24).

كما أن التطور العلمي المتسارع تجاوز وقضى على أغلب النزعات الإنسانية بل تمادى للإنسانية ذاتها، بحكم أن الإنسان أصبح محل التجربة والدراسة وانتفت عنه قدسيته

لتصبح النزعة الإنسانية "عاجزة تماما عن مسايرة العلم والتكيف معه، باعتباره قوة فكرية متعاضمة تطرح اليوم بإلحاح ضرورة إعادة النظر في مكونات الخطاب الفلسفي عن الإنسان وذلك لمصلحة الإنسان نفسه (الداوي، صفحة 22)، كأن الحل الوحيد هو ردع وعقلنة هذه الغطرسة العلمية.

أزمة الإنسان في العصر الحالي وفي ظل وجوده في خضم التقنيات والتطورات العلمية، جعلته يعيش حالة اغتراب لوجوده ليتلاشى تدريجيا مفهوم الإنسانية، خاصة بعد الثورة الفيزيائية الكم والثورة البيولوجية الجينوم التي جعلت من إنسانية الإنسان مشروعاً جينياً. نجد فيكتور فرانس يتساءل حول دلالة ومآلات هذه الاكتشافات البيولوجية أو التكافل المتزايد بين الإنسان والآلة، بحكم وجود مسألتان جديرتان بالاهتمام أولهما: التحكم الوراثي الكامل في الإنسان وثانيتها: نهاية الإنسان كإنسان. فبعد أن كان العلماء في محاولة اكتشاف طرق آمنة لحماية الجنس البشري، من خلال الوصول إلى تقنيات طبية تقي الإنسان من الأمراض، وتأخرها قدر الإمكان وهو فعلاً قد تحقق مع الثورة الجينومية التي لا يخفى أنها ساهمت في فتح رؤى مستقبلية للإنسان، من زراعة الأعضاء وعلاج الخلايا السرطانية، والعمل على اكتشاف تقنيات تساعد على زيادة متوسط العمر، لكن في ظل هذه التطورات التي كانت تسعى لإخراج الكائن البشري من أزماته الفيزيولوجية المستمدة من تكوينه الطبيعية، اتجه به المسار العلمي إلى السقوط في أزما أخرى أكبر من سابقتها، لكونها تمس كيانه ووجوده كإنسان كعودة صريحة لفكرة اليوجينيا بدعوة الأخذ في تشكيل بشر بصفات انتقائية مميزة، فاعتبرها "برور" وهو أحد روادها أن "اللاأخلاق بالأمس كثيراً ما يكون هو الواجب الاجتماعي في الغد" (كيقلس، 2011، صفحة 235). فنجد فيكتور فرانس يدعو إلى التكافل بين الإنسان والآلة، ما يجعلنا نبصر موت الإنسان الأنطولوجي بفعل التكنولوجيا التي تعمل على تحويله إلى شبه آلي يتجاوز النقص البشري، بخلق نقص في وجوديته من جهة مغايرة متجاوز لطبيعته، لدرجة أن تنبأ العلماء ببعض الصفات التي سيكون عليها الإنسان

المتجاوز، أهمها أنه سيكون بدماغ كبير سيصل إليه الحال بانتخاب صناعي تعني به المجتمعات البشرية القادمة كما يصبح للإنسان المتجاوز القدرة على التفاهم مع الغير بلغة تلقائية غير منطوقة أكثر مما هي منطوقة دليلاً على ذكائه الاصطناعي الخارق، زيادة بعض الصفات الخارجية المنتقاة ليصبح الإنسان المتجاوز المستقبلي والقريب من تحقيقه يعيش غياباً للمعالم الروحية والتركيز على الجسد ما سيغيب الإنسان الطبيعي بروابطه الاجتماعية، كما يرى "مارتن ريس" في كتابه الرائج ساعتنا الأخيرة أن عام 2020 هو عام الخطأ البيولوجي المدمر للإنسانية، بعد أن نجمت عنه أخطار سماها بالإرهاب النووي بفعل ما تحمله من فيروسات قنبلية فتاكة بطبيعة البشر.

1.3 الهندسة الجينية وضرورة بناء السؤال الأخلاقي الديني:

إنّ الثورة اليوجينية تنذر بخلق نوع جديد من البشر المتفوقين جينياً مع تحطيم الضعفاء من البشر "مما ينذر في الأخير إلى ظهور سلاح مدمر و شامل متمثل في الإبادة الجينية" (بندي، 2004، الصفحات 413-428).

كما أنّ الإنسان المتجاوز يسير بالعقل لا بالعاطفة، حتى التناسل عنده سيكون مختصر فقط على ذوي القدرة والكفاءة الجسمية الخلقية والذهنية، ما سيحقق مسعى الفيلسوف نيتشه بوجود الرجل الأعلى، وولادة إنسانية جديدة قائمة بفعل القوة و التفوق والتي يراها الباحث "غورتزل" أن هذه التقنيات ستعطي تعريفاً مختلفاً للكائن الإنساني من جميع النواحي، فالتطور الذي يشهده العالم اليوم وخاصة العلمي منه أنتج العديد من المشاكل، عكس ما كان يهدف له ما حتمّ على الشريعة أن تقوم بمساءلة أخلاقية بصفة النقد والمراقبة بعد أن دفع العلم ثمن انجازاته، ليأخذ بالفقه إلى تخصيص حقل لذلك وهو حقل فقه البدن، يقوم بتشجيع العلم والتقنية في حدود أخلاقية شرعية تحترم حرية وكرامة الإنسان، ب"ضرورة تخليق العلم والتقنية باعتبار أن هذه التطورات لا حدود لها والخوف من مآلات سوء استخدام العلم وغياب الفضيلة والحكمة وأثر ذلك على فساد الأخلاق"

(زيتلي، 2015، صفحة 151). فالانفلات الأخلاقي في التجارب الطبية على الإنسان الذي شهدها العالم المعاصر تستدعي إلزامية أخلاقية قائمة على ضوابط شرعية.

بحكم أنّ علماء الفقه أقرّوا أن المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية تمكن في حفظ الضروريات الخمس منها: النسل وحفظ النسب والعرض، وهي ضرورة لحفظ النسل البشري (عاشور، 2007، صفحة 151) وحفظ النسل يستدعي ويشمل حفظ صورته الطبيعية بعدم تغييرها، خاصة بما تحمله اليوجينيا من نية الاحتفاظ بأنقاها والتخلص من الناقصة منها وهو الاعتراف المناقض لقوله تعالى: "وصوركم فأحسن صوركم" (التغابن، صفحة 3)، لتكون هذه الآية سنداً دلالياً رافضاً لهذا الفعل الذي يعدّ تغييراً للخريطة الجينية، فالـيوجينيا لتتعرّى فكرة الإصلاح والتعديل لعضو ما، فالإصلاح يعني إرجاع العضو لصورته الطبيعية لا تغييراً لها حتى وسائلها تخالف مقصد الشرع في حفظ النسل فالمقرر في الفقه أن الوسائل لها أحكام المقاصد (القرافي، 1991، صفحة 120) لتكون الغاية من هذه التقنية هو تحسين الصورة بتغييرها وتقريبها نحو الكمال بمنطلق علمي تقني وهو تجاوز للحدود الشرعية، لأن الكمال من سمات المطلق في المنظور الفقهي، وعليه ما يؤدي للحرام فهو حرام خاصة بانتهاكها لقدسية الإنسان وتحويله لمجرد رموز وراثية. حتى أنّه بدى من هذا التصور أقرب لمقتضيات العقل ومنطقه.

4. المسؤولية الأخلاقية الإسلامية كمرجعية للممارسات الجينية:

إن كانت المرجعية الأخلاقية الغربية تستمد مشروعيتها من مبدأ الحرية الإنسانية أساساً لصون كرامته وتحقيق ذاته، باعتباره غاية في لذاته، وإن رفضت فكرة مكننته وتشيينه ونجدها كذلك قد شكلت بمبادئها المركزية فكرة تسيّد الإنسان على كل شيء؛ لكن حتى على وجوده الطبيعي، على خلاف ما تعطيه له الرؤية الإسلامية من صور التكليف تحقيقاً لمبدأ العبودية لله، ما يجعل الإنسان موضع اصطباغ ائتماني لمقاصد الشرع، فيحقق ماهيته الإنسانية- كما جاء عند طه عبد الرحمان- ولا يمكن أن تقوم ماهيته إلا

بتحقيق فعل التخلق القائم على طبيعة أصيلة وهو المقصد الديني، عكس الغايات الخلقية العرضية المتغيرة بتغير وضع الإنسان وسيادته، لتكون مرجعية أوجدها الله في كل مخلوق بالفطرة وهو ما يعرف بالضمير "فالمعاني السلوكية المشتركة بين وعلم الأخلاق معاني فطرية وينزلونها منزلة الكليات الأخلاقية المشتركة بين الأمم جميعاً" (الرحمان، 1993، صفحة 388) هذا ما يوحى بتوافق المرجعية الإسلامية مع الحاجة الإنسانية والمواكبة العلمية، فتكون قانوناً عاماً لضبط الممارسة العلمية تحديداً الجينية، كونها ضابط لمقاصد الجينية اعتماداً على مقاصد الإصلاح، متجاوزة مقاصد النفعية ذات الطبيعة المنقطعة والزائلة Ephemeral pleasure بزوال الغاية، وعليه ينبغي بناء تخلق داخلي قائم على ما يمليه الضمير، قائم على مبدأ لا ضرر ولا ضرار، وإن كان الإنسان في الشريعة الإسلامية من الأصول في بناء المقاصد، فالتعدي عنه والمساس به هو تعدي ومساس بعين المقاصد، وفي محاولة من إخراج الإنسان من هذا المأزق، ينبغي عليه تحمل مسؤولية أخلاقية وتكليف أخلاقي، للتسلل من محتومية صناعة الإنسان فيخرج بأدائه للأمانة الشرعية من آداء التقنية على ذاته، وبما أنّ الحكم الشرعي مرتبط بالقيمة الأخلاقية، ينبغي على برامج الهندسة الجينية من تحسين النسل وإعادة تصنيعه، إلى المثل للرقابة الخلقية المستمدة من شرعية كونية ثابتة ترد مطالب الهندسة الجينية لوضعها الأول، أي العلاجي لا الإنتاجي .

على الرغم من انفتاح البعد بين الغايات البيواتيقية والمقاصدية في ما يتعلق بمآلات الهندسة الجينية وفي بلورة المعاني اللازمة لبعض القضايا الإنسانية كتتحقيق الكرامة ومعنى الحرية، أيضاً البحث في الجينات وما يرتبط بها من ذرائع ونوايا، لكنها تتفق في ضرورة بناء المصلحة الإنسانية، وإن اختلفت في المعنى فهي تتعايش بالإتفاق على فكرة ضبط تطبيقات الجينوم التي ينبغي أن تبقى في حدود حلقة من سلسلة التطور العلمي، لا تغيير لوجودية الإنسان، حتى لا تبقى هذه التقنيات في حدود الإعتبارات النفعية الضيقة وتروم إلى رحابة المقاصد الإنسانية والقيمية خاصة، فتصبح مسارا لتحقيق الصلاح الإنساني بما

يوجه الفرد نحو الارتقاء الذاتي، ما يجعل الممارسة العلمية منسجمة مع مقتضيات الكرامة الإنسانية كتتحقيق لمهمة الصلاح الذي يدخل الفرد في مهمة العبودية نتيجة لتزكية النفس وصحوة الضمير وفق مبدأ الرشد الذي يصبو معناه لادراك الإنسان أخلاق الخيرية وبناء المصلحة الغيرية، وإن كانت البيواتيقا حلا أخلاقيا للمشكلات الإنسانية المعاصرة، لكنها لا تعدو إلا أن تكون نداء يضبط مصالح الجسد، أما الحاجة الروحية قائمة على جوهر روحي مطلق متحقق في الشرعية الدينية.

5. خاتمة:

إنّ تقنية نقل الجينات ألقت على مجتمعنا مشاكل ومصاعب لم يسبق لها نظير ، بما تضعه في يد الإنسان من قدرة على تغيير واقعه البشري وخلقها لما يفوقه ، أي تغيير المجال الطبيعي تغييرا عميقا وإن كان من الجحود انكار ما قدمته الهندسة الجينية من أساليب علاجية لأمراض مستعصية، لكن من جهة أخرى انبثق عنها مشاكل عديدة ذات صبغة قيمية وأخلاقية توحى بواقع مضطرب في تأسيسه لتوازن بين البناء الصحيح لمفهوم حقوق الإنسان وحدوده، الأمر الذي منح هذا الأخير غطرسة مكنته من وضع برامج لخلق نسخ مماثلة له، ما أدى إلى كشف أغوار الجانب الوراثي لكل فرد كان للهبة الإلهية فيها موضع اغتراب، بعد بلورة عقلية أخلاقية جديدة هدفها التكيف مع العالم الجديد بعيدا عما رسمته الشرائع السماوية، هذا ما يدعو على رأي طه عبد الرحمان إلى ضرورة شرعنة المجال التقني وبناء دستور أخلاقي جديد، لممارسة التطور العلمي بصورة تتماشى مع الحكمة الإلهية، فاسقاط الفروق الفردية من العوالم البشرية سيسقط معه البعد الروحي للإنسان وهو ما يتعارض مع قوله تعالى: "و من آياته خلق لكم السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين" (الروم، صفحة 3)، فالحضارة التي تهتمش القيم الأخلاقية والمقاصد السماوية الثابتة هي خلق لقيم جديدة تدمر نفسها من تطورها، فللعقل حدود معينة يبقى

ففيها وكل محاولة خروج منها هي خروج من إنسانيته. تحليلنا إذن مناقشة تطبيقات الهندسة الجينية إلى حقيقة اهتمام العالم التقني المعاصر لفهم وبناء الواقع الفيزيائي واستباقه لمسار الإنسان الروحي والقيمي، وذلك بغرض التحكم في الطبيعة البشرية والتأسيس لما بعد الإنسانية وبناء الإنسان الإصطناعي الذي تتلاعب به الهندسة الجينية، وعليه فهي مسألة تحتاج تعميقا النظر والمراجعة الأخلاقية والشرعية لسد فجوة الفراغ الروحي وبناء البعد المقاصدي، ما أشار له هانس يوناس بفك بروميتوس القيد بعد اكتساب العلم قوة لم يعرفها من قبل لينطلق لأشباع رغباته دون حدود، الأمر الذي يستوجب أخلاقا تحصّن الإنسان من تحول التقنية والتقدم العلمي إلى لعنة" (JONAS, 1995, p. 15).

قائمة المراجع

قائمة المراجع مترجمة إلى اللغة الإنجليزية:

1. Plato, laws ,TR: taylor, transcribed into Arabic by Muhammad hassan Zaza ,the Egyptian general Book Authority Presse, ed 1986.
2. Ahmed Mahmoud Subhi. Mahmoud Fahmy zaidan. in the philosophy of medicine. Dar al-nahda. Al-Arabiya, Beirut. ed , 1993.
3. Al-Tahar Bin Ashour. The purpose s of Islamic Law .dar Al-Salam , 2ed edition. 2007.
4. Shihab Al-Din Al Qarafi. al-Furuq ,The word of The Book. Beirut , 2/about 44. Taj al-Din al-Subki, similarities and analogues, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, ed. 1, 1991.
5. Daniel Kiglis, The Stormy History of Human Genetics, by Ahmed Mostaghir, The Egyptian General Book Authority, Cairo, 2011.
6. Jerome Bundy, Curator Where To, Zahida Darwish Jabboun, Tunisian Academy of Sciences, Letters and Arts, House of Wisdom, UNESCO Publications, Beirut, ed., 2004.

7. Saeed Muhammad Al-Haffar, Biology and Human Fate, The World of Knowledge, National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait, No. 38, November 1984.
8. Khadija Zatili, Applied Ethics, Controversy of Values and Current Contexts of Science, Kalima for Publishing and Distribution, Lebanon 2015.
9. Taha Abdel Rahman, Renewing the Curriculum in Evaluating Heritage, Arab Cultural Center, Casablanca, 1993.
10. Eugen Habermans, The Future of Human Nature Towards a Liberal Breed, TR: George Kanora, Beirut 1st Edition, 2006.
11. Eugen Habermans, Joseph Ratzinger, dialectic of secularization "reason and religion" tr: Hamid Lahhab, tables for publication, translation and distribution, 1st edition, Beirut, 2013.
12. Abdel-Razzak Al-Dawy, Human Death in Contemporary Philosophical Discourse, Heidegger, Levy Strauss, Michel Foucault, Dar al-Tali'ah, Beirut.
13. Eugenics science having for object the conditions of physical improvement of the human speciesp519. ،pluridictionary la rousse ،paris ،1985.
14. Hans Jonas. the principle responsibility an ethics for technological civilization ،paris ، Cerf ،3ed ،1995.

قائمة المراجع باللغة العربية:

1. أحمد محمود صبحي. (1993). في فلسفة الطب. بيروت: النهضة العربية.
2. أفلاطون. (1986). القانون. مصر، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
3. الطاهر بن عاشور. (2007). مقاصد الشريعة الإسلامية. دار السلام.
4. جيروم بندي. (2004). القيم إلى أين. بيروت: بيت الحكمة.
5. خديجة زيتلي. (2015). الأخلاقيات التطبيقية جدل القيم و السياقات الراهنة للعلم. لبنان: كلمة للنشر و التوزيع.
6. دانييل كيقلس. (2011). التاريخ العاصف لعلم وراثته الإنسان. (أحمد مستجير، المترجمون) القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.
7. سعيد محمد الحفار. (1984). البيولوجيا و مصير الإنسان. (عالم المعرفة، المحرر) المجلس الوطني للثقافة.
8. شهاب الدين القرافي. (1991). الفروق. عالم الكتاب.
9. طه عبد الرحمان. (1993). تجديد المنهج في تقويم الثرات. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
10. عبد الرزاق الداوي. موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر. بيروت: دار الطليعة.
11. يوغن هابرمانس. (2013). جدلية العلمنة "العقل و الدين" (الإصدار 1). (حميد لشهب، المترجمون) جداول للترجمة و النشر.
12. يوغن هابرمانس. (2006). مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبيرالية (الإصدار 1). (جورج كنورة، المترجمون) بيروت.

قائمة المراجع باللغة الفرنسية:

1. Hans Jonas, *le principe responsabilité* (éd. 3). PARIS, 1995.
2. rousse, *l'engénisme science*. PARIS. 1985.